إبراهيم وآل إبراهيم...دروس وعبر

ناصحون

(1) كن شخصية عظيمة..

لم يكن إبراهيم شخصية سطحية أو إمعية، وإلا لما كان إبراهيم..

لم يقتنع بما عليه الجموع بل كانت له رؤيته ويقينه، وبحثه عن هذا اليقين الفطري البدهي بأدلة قاطعة..

بل وناظر على هذا اليقين وهذه العقيدة..

لم يكن إبراهيم صاحب رؤية يكتفي بها وحسب، بل كان صاحب إرادة وصاحب موقف ومواجهة.

لقد واجه أباه وقومه بحقيقة ما هم عليه فلم يسمّ معبوداتهم آلهة، بل سماها بحقيقتها (أصناما، وتماثيل) ثم قال كيف تتخذ هذه الحقيقة الباطلة المرذولة آلهة ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾(الأنعام:74) ثم يقرر بلا تلعثم ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(الأنعام:74)، وكذا يواجه قومه ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾(الأنبياء:52) ثم يقرر أيضا بلا تلعثم ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(الأنبياء:54).

إنه يراهم ، ويرى أوضاعهم، ويرى معبوداتهم، على حقيقتهم عرايا عن الحق موغلين في الضلال..

ثم إنه لا يكتفي أنه علم الحق؛ بل سعى الى المواجهة والتغيير والصدع بالحق وتكسير الأصنام وهدم التماثيل برمزيتها وما فوقها من أوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية، وإنزال الهزيمة بهم حتى وصل بهم الى الحالة التي أقروا فيها بسفاهتهم ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الأنبياء:64)..

ولا عليه أن تمادوا أو عاندوا بعدها؛ فقد عرّاهم وكشف زيفهم وأبقى إقرارهم حجة عليهم الى يوم القيامة.. نقرؤه نحن الى هذه اللحظة!

أما أنا وأنت بعد إبراهيم فاعلم أنك لن تصنع شيئا لو كنت شخصية مائعة أو تافهة أو سطحية تسير بين الجموع باحثا عن دفء العدد ولو على الباطل بدون تفكير.. لن تصنع شيئا لنفسك، ولا لأمتك، ولا لآخرتك إن سمعت الكذب فصدقته وخوطبت بالباطل فاستجبت له.

لا نجاة يوم القيامة إلا بالإحساس العميق بالمسؤولية، مسؤولية العقيدة والموقف.

ولن تقدم لأمتك شيئا ما دمت مترددا تعيش على هوامش الأحداث وترضى بالخطاب الكاذب وتخدع نفسك.

إن مجرد وجودنا في الحياة يفرض مسؤولية ضخمة، إن لنا في الوجود دورا، واليوم العظيم قادم ولا بد من تقرير المصير وحمل الزاد امتلاك الرؤية واتخاذ القرار وشحذ الإرادة.. على طريق إبراهيم وآل إبراهيم..

(2) كن وفيّا تكن إماما..

تقدم إبراهيم بالامتثال والوفاء بالتكاليف، فجوزي أن صار إماما.. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾(البقرة:124)..

فالإمامة تالية للامتحان، وهي جزاء للامتثال والقيام بالأمر وحفظ الحد وتعظيم الحرمة.

لقد أصبح إبراهيم إماما لمن بعده، وإبراهيم أسوة؛ وباب الإمامة مفتوح للناس ولم يغلق دونهم؛ والإمامة مطلب للمتقين ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(الفرقان:74).

والناس تحتاج الى أئمة في الدين، يشاهدونهم ويحتكون بهم ويرون الدين ممثلا فيهم وفي أعمالهم ومواقفهم، كما في أقوالهم ودلالتهم على الله وعلى طريقه تعالى.. فتشرئب إليهم الأعناق وتلحظهم العيون.. إنها طبيعة البشر.

وأئمة الدين للمجتمعات كالجبال للأرض؛ فإذا ذهبت الجبال مادت الأرض، وإذا ذهب أئمة الدين ماد الناس واضطربوا..

قد تكون الإمامة عامة كإمامة إبراهيم والنبي محمد من بعده.. وقد تكون لجيل من الناس أو لمجتمع أو بلد، أو لطائفة من المسلمين يهتدون به، أو أقل من ذلك.. وأقله أن يكون المسلم إماما لأسرته وأهله ينظرون اليه فيقتفون أثره ليدلهم على الطريق.. وأقل من ذلك ضياع وهلكة

كن كما قال ابن مسعود (مصابيح الدجى)، وسر على درب إبراهيم، وآل إبراهيم.

(3) أنت مؤثر شئت أم أبيت..

الإنسان مؤثر بطبيعته شاء أم أبى.. يؤثر في ظهر الأرض بوطئه وحركته، ويؤثر في نفوس الناس قولا وفعلا، حُسْنا وسوءا.. ولهذا قرر تعالى أنه يكتب للعبد العمل وأثره ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس:12) وهي تشمل كتابة الأثر المادي كوقْع الخطوات، ويشمل أثرَه في النفوس ودوامَ تأثيره بعده .

إنك تترك انطباعا في كل من رآك أو سمعك أو تعامل معك، تترك أثرا في والديك وإخوتك، وزوجك وولدك، وجيرانك وزملائك..

فإذا كنت مدعيا للالتزام نظرت إليك العيون نظرة أخرى فراقب الناس أحوالك للدلالة على أن هناك من التزم أمر الله فيشجعهم أو يعلمهم أو يكون حجة عليهم..

أنت لا تدري الى ما ينتهي الأثر ولا متى ينتهي الأثر.. ولن تحصر النفوس التي تتأثر بك ولا تحدد كيف تتأثر بك

وإذا عمل الإنسان سرا فقد جاء في الحديث أن الله تعالى يُخرج عمله للناس كائنا ما كان سره، وجاء عن بعض الصحابة أن الله تعالى يُلبس الرجل جلباب عمله ولو كان سرا، وأن عمله يبدو على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

قد يموت رجل سوء ويبقى أثره السيء في النفوس فبرغم موته لا يُغلق كتاب سيئاته..! ولهذا قال السلف (طوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه).

وقد يرحل رجل خير فيبقى كتاب حسناته ـ من قول وعمل وأثر وصلة ـ لا يغلق رغم موته.

تذكر أنه قد امتثلت يوما مؤمنة لأمر ربها، ووثقت فيه وتوكلت عليه وأحسنت الظن به، وسعت بقدر طاقتها.. فأبقى الله تعالى خطواتها نُسُكا الى يوم القيامة تطأ ملايين وملايين الأقدام أثر خطواتها ساعين حذو سعيها راجين عتق نفوسهم والنجاة بها..

وصار نُسك إبراهيم وفداؤه نسكا الى يوم القيامة..

لم تكن هذه المؤمنة تعرف أثر سعيها يوما في صحراء خاليه فنقل الله سعيها الى العالمين..

لن تجد مثل الإخلاص والامتثال يبقيان لك ويُبقي الله تعالى لك الأثر كما شاء، وبحسب الإخلاص، وبحسب حكمة الله الحميد المجيد.. على خطى إبراهيم وآل إبراهيم

(4) الحضارة والدين عند آل ابراهيم

يفرق الإسلام تماما بين جانب الإبداع المادي والحضاري فيفتح هذا الباب للناس بوسعه، ليولجوا فيه على سعة قدراتهم، لكنه يضع لهم ضوابط أخلاقية، وغاية نظيفة، وإطارا اجتماعيا وفوائد عملية يستهدفونها.

ويضع للناس أيضا جانبا تعبديا لله تعالى يستسلمون فيه لأمره ويخضعون فيه لحكمه ويلهجون فيه بذِكْره.

والإنسان يبحث عن هذا الجانب؛ فالمخترع الياباني يخرج من جيبه تمثالا يسجد له! والطائرة الروسية (يباركها!) قساوستهم لتقتل أطفالا ونساءا!! والأمريكي يبعث في جنوده وشعبه الحماس بأن يجعلوا حروبهم صليبية فيما يعتقدون بالصلب والفداء وموت الرب! وبعثه!

هكذا الإنسان؛ لأن فيه جانبا يتوق أن يتجه لقوة جبارة وعظيمة يخضع لها في جانب بينما هو يخترع ويعمل بيديه ويُعمل عقله في جانب آخر ليكون مطمئنا..

إنها جوعة دائمة في الإنسان من حيث هو إنسان.. والسبب أن الله تعالى فاطر الإنسان وخالقه جعل فيه جوعة التوجه إليه تعالى من وراء الغيب، ولهذا ما زالت تبحث روح الإنسان عن الغيب؛ فإن اهتدت بالوحي اتجهت الى الله الوجهة الصحيحة ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾(المائدة:94)، وإن تركَت الوحي زلّت وضلَت وأتت بالهزء والأعاجيب فسجد للصنم وعبد الوثن وركع للصليب.

ولهذا فالاستسلام لله بالتعبد له في الزمان الذي أمر، والمكان الذي أمر، وعدد مرات الطواف، والسعي، ورمي الحصى وحلق الرؤوس لله وذبح الهدي، وترك المحظورات.. المبيت في منى ثم مزدلفة والوقوف على جبل الرحمة، ورفع اليدين والابتهال العميق، والدعاء والإلحاح، وسكب العبرات والنشيج لرب العالمين؛ هو جوعة فطرية وحاجة ملحّة وفقر إنساني لله لا يُسد إلا بعبادته تعالى.. وهو مأخذ إبراهيم وآل إبراهيم.

(5) الأمان فيما أمر

لم يمهد إبراهيم لزوجه وابنه أنه سيتركهم في الصحراء، وأمرهم بالأسباب الفلانية والفلانية، بل تركهم حيث أمر الله مطمئنا لربه.؛ فاستجاب للهجرة بالزوجة والإبن، وتركها في الصحراء حيث أُمر ثم مضى لولا أن سألته زوجته (آلله أمرك بهذا)؟ فأومأ برأسه أن (نعم) فقالت (إذن لن يضيعنا).

ورضيت امرأته واطمأنت أنها لن تضيع عندما استوثقت أنه أمر الله..

وذهب ليذبح ابنه كما أُمر مطمئنا أن الخير كله فيما أمر الله..

كذّب نفسك إن لامتك على القيام بأمر أو ترك محرم فقد أقسم الله أن الإنسان في خسر عدا من قام بما أمر الله من إيمان وعمل صالح وتواصي بالحق وتواصي بالصبر.. ولو بدا لأحد للحظة أنه قد فاته خير أو أصابه شر بسبب أمر الله؛ فهذا غير صحيح بل كذب.

إن الإستسلام في اطمئنان، والثقة في الخير فيما أمر الله، وتحقق كل الخير فعلا لأجيال مديدة في القيام بأمر الله تعالى هو درب إبراهيم وآل إبراهيم.

- التسليم

صفة التسليم التي تميز بها إبراهيم صلى الله عليه وسلم وإخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:131) وقد ظهر هذا التسليم واضحا في شعائر الحج كتسليمه لربه في ذبح ابنه، وكتسليمه في ترك ذريته بواد غير ذي زرع، توكلا على الله عز وجل.

"هذا إبراهيم الشيخ . المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن . ها هو ذا يرزق في كبرته وهرمه بغلام . طالما تطلع إليه . فلما جاءه جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنه حليم . وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي ، ويرافقه في الحياة . . ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى في منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم . . نعم إنها إشارة . مجرد إشارة . وليست وحياً صريحاً ، ولا أمراً مباشراً . ولكنها إشارة من ربه . . وهذا يكفي . . هذا يكفي ليلبي ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه . . لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد؟!

ولكنه لا يلبي في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع ، ولا يطيع في اضطراب . . كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ (الصافات:102).

فهي كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذي يواجهه ، الواثق بأنه يؤدي واجبه . وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه ، في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي ، ويستريح من ثقله على أعصابه!"

" لقد أسلما . . فهذا هو الإسلام . هذا هو الإسلام في حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم . . وتنفيذ . . وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم"(1).

ومن نماذج التسليم في حياة إبراهيم عليه السلام وما أكثرها.. ما رواه البخاري في صحيحه عن مجيء إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر الى مكة، وفيه:

«جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت»(2)(3).

(6) لا تقف بنفسك بل بربك

وقف إبراهيم مواقف عظيمة، أثرت فيمن جاء بعده؛ لكنه في كل هذا لم يكن يقف بنفسه بل كان يقف بربه إذ كان متوكلا..

ففي اليقين والرؤية والعلم توكل ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(الأنعام:77) قالها على وجه الافتقار الى الله تعالى أن يهديه، وأعلن أنه لو لم يهده ربه اليه لضل وأنه لا طريق للهداية إلا أن يهديه الله، معلّما قومه أنه لا بد من التوكل للوصول الى العلم واليقين.

وفي المواجهة حينما ألقوه في النار وقف أيضا بربه فقال حسبي الله ونعم الوكيل، تحسبا بالله واكتفاء به وتوكلا عليه في مواجهة الموقف والثبات فيه والنجاة منه..

ففي العلم وصل الى اليقين والاطمئنان، وفي المواجهة صار إماما رضي الله إمامته وأمرنا باتباع ملته، وهي ملة الأنبياء قبله وبعده؛ لكن لم يُبعث بعده نبي إلا من ذريته..

أنت ضعيف، والأحمال ثقيلة والأنواء كثيرة والعدو متربص، ولو وقفت بنفسك ضعفت وهلكت ولم تقْوَ على المسير، فاستيقن أنه لا حيلة لاستكمال الطريق وصد العدو وغلبته إلا أن يكون الله عضدك ونصيرك .

إنه التوكل على الله والتحسب به والاكتفاء به، واليقين فيه وحسن الظن وصدق الالتجاء؛ فكيف يخيب رجل يقوم بهذا؟ فكن على درب إبراهيم وآل إبراهيم.

(7) الصلاة عند ابراهيم وآل ابرهيم

لم تكن الصلاة عند إبراهيم وآل إبرهيم أمرا هامشيا في حياتهم؛ بل كانت بحيث تقوم لها مدن وتنشأ لها قرى وتبنى لها ممالك وبلدان ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(إبراهيم:37) فمن أجل هذه الشعيرة وضع أهله وولده آملا أن تهوِي إليهم أفئدة، وما قام بهذا إلا من أجل إقامة شعائر هذا الدين..

هذا محل الشعائر عند إبراهيم وآله؛ فانظر كيف منزلتها في القلوب وكيف مكانتها في النفوس وكيف مساحتها في الحياة..

ومعنى إقامتها يشمل الأداء فرديا، والاجتماع من أجلها، ويشمل التعظيم، ويشمل فرضيتها ومنع انتهاك حرمتها بمنع الجهر بتركها، يعني تنظيم الأوقات من أجلها وتنظيم الأعمال والتجارات والوظائف والدراسة وأعمال الحكومات على وفقها وعلى احترامها، ومنع المستهتر بتركها من استهتاره، ورصد الأموال والمؤذنين والأئمة والجند من أجلها..

لقد نشأت مكة مع إبراهيم من أجل هذا الهدف ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

والميدنة في الإسلام لا يكون مركزها صالات الرقص وأندية الترفيه بل ما يقيم الشعيرة من المسجد الجامع فهو قلب المدينة وما يقيم أحكام الله من إدارات حاكمة من حاكم ومحافظ ليكونوا مسؤولين عن إقامة الدين وإصلاح الحياة معا، للخلق جميعا..

إنه درب إبراهيم وآل إبراهيم.. فصلى الله عليه وعلى نبينا محمد، وعلى الكليم موسى والمسيح عيسى، وعلى جميع المرسلين..

(8) الأمة التي شغلت إبراهيم

كان معنى (الأمة) حاضرا عند إبراهيم؛ فلم يكن يتعبد بصيغة فردية فقط، في عصر لم تكن الأعداد ضخمة ولا الدول متماسكة مثل الوضع المعاصر، ولم تكن تشكل وحدات سياسية متراصة ومتشابكة مثل اليوم، ولم يكن للدولة دور متغول على تربية النشء وقيم الناس واقتصادهم ولقمة عيشهم مثلما نرى الدولة الحديثة ذات المؤسسات المتغولة والطاغية..

ومع هذا لم يكتف إبراهيم بنجاته الفردية ولا الاستسلام الفردي بل كان يسعى نحو (الأمة) ويطلب من ربه ويدعوه من أجل (الأمة) القادمة! وكان يدعو أن توجد أمة مسلمة، ثم سأل لهذه الأمة ما يهديها ويحفظ لها دينها.. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ (البقرة:128).

أمة تحمل الإسلام كعقيدة، وتحمل الإسلام كنظام وقانون، وتحمل الإسلام كهوية وولاء، وتحمل الإسلام كقيم وأخلاق، وتحمل الإسلام كصبغة ومشرب حضاري.

لم يكن الإسلام دينا فرديا عند إبراهيم وآل إبراهيم، ولم يتركوا الحياة ليفسدها الطغاة، بل واجهوا الطغاة وأنشأوا أمة ودعوا لوجود أمة وقرروا الحق وواجهوا به وورثوه فيمن بعدهم وتركوه حيا نابضا يرجع الناس اليه دائما .. ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف:28)

لعلهم يرجعون كلما نسوا، ولعلهم يفيئون كلما ابتعدوا.. وما زلنا نقول (لعلهم يرجعون الى الإسلام كنظام وقانون، وكهوية وولاء، وكقِيم وأخلاق، وكصبغة ومشرب حضاري..).

لعلهم يرجعون..

(9) تأثر هاجر وإسماعيل بإبراهيم

كانت لقاءات ابراهيم بإسماعيل بعد ما كبر وتخطى مرحلة الرضاع محدودة، بل ومعدودة؛ عدها أهل السير وعلماء التاريخ.

لكن كانت انطباعات إسماعيل بأبيه عميقة جدا، وأثر في تربيته وتكوينه عميقا جدا..

عاشت هاجر مع إبراهيم فترة معينة لكنها ليست طويلة بل انتقلت مع ابنها الى مكة المكرمة ونشأ من ذريتها (أبناء إسماعيل) العرب بعد ذلك.. لكن في فترة حياتها مع إبراهيم كان تأثرها به عميقا؛ فبعد فترة وثنيتها في مصر، أصبحت زوجة لنبي، وصلح حالها لأن أصبحت تربي نبيا رسولا!..

كيف تأثرت هاجر وكيف انطبعت بإبراهيم وكيف كان تأثيره عليه السلام في قلبها وقلب ولده؟

كم عاش يوسف مع يعقوب؟ ومتى تركه؟ تركه غلاما ذا سنين معدودة..لكن بقيت تلك التربية حتى قال وهو في السجن ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف:38).

كيف انطبع يوسف في سنه الصغيرة واستمر هذا التأثر والانطباع عميقا وجادا في نفسه؟ وكيف استمر نفس الانطباع في نفس إسماعيل عميقا وجادا؟ وكيف نشأ كل منهما نبيين رسولين ينموان محتفظين بتلك التركة ويرعيان تلك البذرة.

وتثمر فيهما تلك التربية وتدوم تلك الانطباعات ويتجذر ذلك التأثر؟.

نعم إنهما نبيان كريمان، رباهما الله تعالى تحت عينه، ولكن الله تعالى سبب لهما ذلك التاثير كل في بيته وجعل تعالى لهذا التأثير دواما وجذورا في قلبيهما.. بسبب الصدق العميق لإبراهيم ويعقوب، حتى كان لتلك الفترة البسيطة من الاحتكاك بابنيهما ذلك الأثر الممتد بلا انقطاع..

يجب أن نبحث عن نفوسنا وديننا، يجب أن ننظر في تأثر أبنائنا بنا وأن نرى فيهم حقيقتنا وصورتنا الواضحة.

أما مجرد الإحالة السهلة بأننا جيدون وأن أبناءنا سيئون ولا تنجع فيهم التربية فهذا تبسيط وتسطيح وإهمال لجانب مهم يجب مراجعته قبل أن نقرر أن العيب ليس فينا بل في أبنائنا.

(10) في يوم عرفة.. نبحث عن حياة

إننا نبحث عن يوم يكون لنا خير يوم منذ الولادة، ولن يكون ذلك اليوم إلا اليوم الذي تضع فيه عن نفسك الأثقال والأحمال التي حملْتها من الذنوب، وتتطهر فيه من نجاسات الذنوب التي علقت بقلبك؛ فيغسلك الله منها ويطهرك، ويباعد بينك وبينها، ويزيل عنك أثرها بالماء والثلج والبرَد.

كان بعضهم يقول (اللهم أذقني برْد عفوك وحلاوة مغفرتك)، فالذنوب نار تحرق القلب تحتاج الى برد ليسكن ذلك القلب المحترق والضعيف.

عندما تمر على مزابل الدنيا فيفوح نتنها؛ فتمهل فإن ما نحمله من الذنوب أشد نتنا وقبحا بكثير، ولو كان للذنوب رائحة لما تعاشر الناس.

لما قال تعالى ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه:121)فكان التعقيب بالفاء لتوالي الأحداث، لكن عند التوبة قال ﴿ثُمَّ﴾ ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾(طه:122) فعقب بـ ﴿ثُمَّ﴾ وذلك لأن التوبة ليست ادعاء باللسان بل هي حالة من الندم الذي يخلف كل موضع شهوة من القلب، فتبقى حسرة الفوات وندم الوقوع في المخالفة في كل محل كانت فيه شهوة محرمة فينتفي عن القلب معصيته ويبقى الندم يخلف محل المعصية ويحل محل لذة الشهوة المحرمة؛ فيستعيد المرء قلبه ويلم شعثه ويجمع متفرقه ويصلح خلله ويداوي جرحه ويلتئم عليه.. وعندما يطهر ويخلُص لربه تعالى ويسعى اليه بقلب سليم يصلُح حينها لمجاورة القدُس والولوج على الله والفوز بالقُرب.

لمّا ذكر تعالى خلق الإنسان وبدايته، وحمله للأمانة ذكر ظلمه وجهالته ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾ (الأحزاب:72) ولكنه تعالى ذكر عقبها غاية العبد من وراء ذلك وآخر مسعاه فذكر التوبة ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(الأحزاب:73).

كم من خير فاتك بسبب معصية التفتّ اليها أو لم تلتفت، وكم من الهم أو الحزن أصابك بسبب معصية قد لا تلقي لها بالا، وكم من علم نُسي أو وحشة في القلب حدثت أو قسوة حالت أو مصاب أصابك أو وهن في قوتك أو ضعف في بصيرتك أو لذة عبادة فقدتها أو عمر فاتك في غير منفعة.. كل هذا بسبب ذنب حدث أو معصية اقتحمتها..

في يوم عرفة يطلب الناس النجاة؛ هم القتلى والقتلة، هم الجناة والضحايا، إنهم يطلبون الحياة فاطلبها معهم لعلك تلحق بالقوم وإن باعدت بيننا وبينهم خطى..

الهوامش

1- "ظلال القرآن:2994\5-2996"
2- البخاري 3364.
3- راجع كتاب (قال اسلمت لرب العالمين لمؤلفه عبد العزيز الناصر) ص: 45-55